

العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي صبيغة للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملّة؛ بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني، منذ كان عمراً الحقيقة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة، وهي مشتملة على أربعة علوم.

الأول علم المنطق، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الخاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب، فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وغوارضها، ليقيف على تحقيق الحق في الكائنات نقياً وثبوتاً بمنتهى فكره، ثم النظر بعد ذلك عندهم إمّا في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الصبيغية، أو النفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو العلم الثاني منها. وإمّا أن يكون النظر في الأمور التي

وراء الطبيعة من الروحانيات، ويسمونه العلم الإلهي وهو العلم الثالث منها. والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير، ويشتمل على أربعة علوم، وهي تسمى التعاليم.

أولها: علم الهندسة، وهو الناظر في المقادير على الإطلاق. إما المنفصلة من حيث كونها معدودة؛ أو المتصلة، وهي إما ذر بعد واحد وهو الخط، أو ذو بعدين وهو السطح، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي. ينظر في هذين المقادير وما يعرض لها، إما من حيث ذاتها، أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض.

وثانيها: علم الأرقام التي^(١)، وهو معرفة ما يعرض لتلك المنفصل الذي هو العدد، ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى، وهو معرفة نسبي الأصوات وانغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها وتعددتها لكل كوكب من السيارية والثابتة، والقيام على معرفة ذلك من قبلي الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها.

(١) أريتميتيك Arithmetic؛ وهو علم العدد أو علم الحساب.

فهذه أصول العلوم الفلسفية وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها
 وبعده التعاليم، فالأرتماطيقى أولاً ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى،
 ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات، ولكل واحد منها فروع تنفرع عنه. فمن
 فروع الطبيعيات الطب؛ ومن فروع علم العنبد علم الحساب
 والفرائض والمعاملات ومن فروع الهيئة الأزياج، وهي قوانين
 حسابات حركات الكواكب وتعديلها، للوقوف على مواضعها متى
 قصد ذلك. ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية. ونحن
 نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها.

واعلم أن أكثر من غنى بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم
 الأئمان العظيمنتان في الدولة قبل الإسلام، وهما فارس والروم؛
 فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً
 فيهم، والدول والسُلطان قبل الإسلام وعصره لهم؛ فكان لهذه
 العلوم محوراً زاخراً في آفاقهم وأمصارهم. وكان للكندائين ومن قبلهم
 من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما
 يتبعها من الصلاصم. وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان؛
 فاختص بها القبط، وسمى بحرها فيهم، كما وقع في المتلوه من خبر
 هاروت وماروت، وشأن السحرة، وما نقله أهل العلم من شأن

البرابى بصعيد مصر. ثم تابعت الملأ بحظر ذلك وتحريمه؛ فدرست علومه وطلت كأن لم تكن، إلا بقايا يتناقلها متحلو هذه الصنائع، الله أعلم بصحتها. مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها، مانعة من اختيارها.

وأما الفرس، فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيمًا، ونطاقها مسعًا، لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك. ولقد يقال: إن هذه العلوم، إنما وصلت إلى يونان منهم، حين قتل الإسكندر دارا وغنبا على مملكة الكينية؛ فاستولى على كتبهم وعلومهم. إلا أن المسلمين لما افتتحو بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم، ما لا يأخذه الحصر؛ كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتقليها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. فإن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منه؛ وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا^(١).

وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولًا، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة

(١) لم تثبت هذه القصة عند المؤرخين.

وغيرهم. واختصَّ فيها المشاؤون منهم أصحابُ الرواقِ^(١) بطريقة حسنة في التعليم. كانوا يقرأون في رواقٍ يُظِلُّهُمْ من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سنادُ تعليمهم على ما يزعمون، من لدن لقمانَ الحكيم في تلميذه إلى سقراطَ الدنِّ، ثم إلى تلميذه أفلاطونَ، ثم إلى تلميذه أرسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي^(٢) وتامسطيوس^(٣) وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم، الذي غلبَ الفرسَ على منكمهم، وانتزعَ الملكَ من أيديهم. وكان أرسخهم في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيتاً وشهرةً. وكان يسمَّى المعلمَ الأوَّلَ، فطار له في العالم ذكرٌ.

ولما انقرضَ أمرُ اليونانِ، وصارَ الأمرُ للقيصريةِ وأخذوا يدين النصرانيَّةَ، هجروا تلكَ العلومَ كما تقتضيه المثلُّ والشرائعُ فيها. وبقيتْ في صحفها ودواوينها مخلدَّةٌ باقيةً في خزائنها. ثم ملكوا الشامَ، وكتبَ هذه العلومَ باقيةً فيهم.

(١) تطلق كلمة المشاؤون على مدرسة أرسطو وتلاميذه، وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلاسفة ويتجادلون في مدرسة الليسيوم وهم مشاء، ولأن أرسطو كان يلقي عليهم دروسه وهو يقعد ويروح. وأما كلمة الرواقيون لتطلق على أتباع المذهب الرواقي وهو مذهب زينون السيبوس، وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلاسفة في رواق كبير في إحدى ساحات أثينا.

(٢) هو الإسكندر الأفروديسياسي أو الأفروديسي، من أشهر شارحي أرسطو.

(٣) في بعض النسخ: "تامسطيون" وهو خطأ، وصوابه ما أثبت، ولد سنة ٣١٠ (وقيل

٣٢٠) وتوفي سنة ٢٩٥ م. له شروحات مهمة على أرسطو.

ثم جاء الله بالإسلام، وكان لأهلِهِ الظهور الذي لا كِفَاةَ لَهُ،
وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوا للأمم. وابتدأ أمرُهُم بالسَّادِجَةِ والغفلة
عن الصنائع؛ حتى إذا تبجَّح السلطانُ والنمولة، وأخذوا من الحضارة
باخط الذي لم يكن لغيرهم من الإمم، وتفتشوا في الصنائع والعلوم،
تشوفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية، بما سمعوا من الأساقفة
والأقسمة المعاهدين بعضَ ذكرٍ منها، وبما تسمو إليه أفكارُ الإنسان فيها.
فبعث أبو جعفر المنصورُ إلى ملكِ الروم، أن يبعثَ إليه بكتبِ التعاليم
مُترجمةً؛ فبعثَ إليه بكتابه أوقليدسَ وبعضَ كتبِ الطبيعيات. فقرأها
المسلمونَ واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي
منها. وجاء المأمونُ بعدَ ذلك، وكانت له في العلم رغبةٌ بما كان
يتجولهُ؛ فاتبعتْ لهذا العلومِ حرصاً، وأوفدَ الرُّسُلَ على ملوكِ الروم
في استخراجِ علومِ اليونانيين وانتساخِها باخطِ العرب. وبعثَ
المترجمينَ لذلك، فأوعى منه واستوعب. وعكفَ عليها النُّظارُ من أهلِ
الإسلام وحذقوا في فنونها؛ وانتهت إلى الغاية أنظارُهُم فيها. وخالفوا
كثيراً من آراءِ المُعلِّمِ الأوَّلِ، واختصَّوه بالردِّ والقبول، لوقوفِ الشهرةِ
عنده. ودوتوا في ذلك الدواوينَ، وأرَبُوا على مَنْ تقدَّمَهُم في هذه
العلوم. وكان من أكابرِهِم في الملةِ أبو نصرِ الفارابي؛ وأبو عليَ ابنِ
سينا بالمشرق، والقاضي أبو الوليدِ ابنِ رشد، والوزيرُ أبو بكرِ ابنِ

النصائح بالأندلس، إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم. واختص هؤلاء بالشهرة والذكر، واقتصروا كثيرون على انتحال التعاليم، وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والظلمات. ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق وعلى مسلمة ابن أحمد المخرطى من أهل الأندلس وتلميذه. ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقتلوا آراءها، وانذب في ذلك لمن ارتكبه. ولو شاء ربك ما فعلوه.

ثم إن المغرب والأندلس، لما ركبت ربح العمران بهما، وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك منهما، إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس، وتحت رقبة من علماء السنة. ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على تبحر من العلوم العقلية والنقلية، لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم. ولقد وقفت بمصر على تأليف في المعقول متعدد، لرجل من عظماء هراة، من بلاد خراسان، يشتهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان، تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم. وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعاً على العلوم الحكيمية وتضلعا بها وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية. والله يؤيد بنصره من يشاء.

وكذلك بلغنا لهذا العهد أنَّ هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية،
من أرض رومة وما إليها من العُدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأنَّ
رسومها هناك متجدِّدة، ومجالس تعليمها متعدِّدة، ودواوينها جامعة
وحملتها متوفرون، وطلبتها متكثرون. والله أعلم بما هنالك، وهو
يخلق ما يشاء ويختار.

